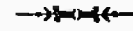


الفروق السيكلوجية

بين الأفراد

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

(تابع)



كان كوينتيليان^(١) Quintilian الروماني - معلم البيان - يئى المذهب Environmentalist . فكان يعتقد أن الفروق السيكلوجية بين الأفراد - وبخاصة العقلية والخلقية منها - هي من آثار البيئة . وكان يرى أن التربية تحو هذه الفروق أو تقلل من أهميتها . وقد بنى رأيه هذا على تجاربه في إعداد خطباء الجماهير . وهو يميل إلى أن التمرين قد يموض على الفرد ما قد حرسته الوراثة . وهو يقول في كتابه « معاهد الخطابة » Institutio Oratoria ما يأتي :

« على الوالد أن يفكر منذ ولادة طفله في أفضل مهنة يريد إعدادها لها . لأنه بتفكيره هذا يكون قد وضع نصب عينيه الناية التي يريد تنشئته لها ، فينمو بذلك نشاطه ، وتتشجذ جهوده في تنويعه وتسويته من طليمة حياته . وإنه زعم واه أن يقال : إن قليلاً من الأفراد قد وهبوا الذكاء والقدرة على فهم ما يلقى إليهم ، وإن الجمهور من الأفراد يضع جهده ووقته سدى بسبب قلة الذكاء وبطء الإدراك . فالحقيقة تناقض هذا الزعم . لأننا نجد السواد الأعظم من الأفراد قابلاً للإدراك سريعاً للتعليم ، ولأن سرعة التعلم ميزة من ميزات الإنسان . ونحن البشر خصصنا بالنشاط والفهم الحكيم ، لأن عقلنا قد نزل من السماء وقل من الأفراد من يولد غيبياً أو غير قابل للتعليم ، كما قل من الأفراد من يولد ممسوخ الخلق مشوه الشكل . ويؤيد رأي هذا أنني أرى بذور الذكاء كامنة في نفوس الكثير من تلاميذى ، وقد تموت هذه البذور بمرور الزمن . ومعنى ذلك أن ظهور الذكاء وتفتحته رهن بالناية والتمرين لا بوجود القدرة الطبيعية فقط . ولعلك تترض فتقول إن تفوق فرد على آخر إنما هو

لما امتاز به الأول من مقدرة طبيعية . وإننى أسلم بذلك ، ولكن هذا التفوق لا يعترف به إلا إذا كانت المقدرة الطبيعية عملية محسوسة منتجة ، كما أنك تعلم متى أن من جد وجد . فعلى من اقتنع بصواب رأي هذا أن يسارع بمجرد أن يصبح أباً ، فيفكر في مستقبل ابنه ، وماذا سيكون ، فيعمل لذلك المستقبل بحرص وعناية وبقطة » .

ونحن وإن سلطنا بأن كوينتيليان من أنصار مذهب البيئة لا يسمنا إلا أن نثبت له أيضاً أنه يعترف بوجود الفروق السيكلوجية الموروثة بين الأفراد . فهو إذاً يقر بالفروق السيكلوجية الفطرية ، وبأن هذه الفروق يمكن إزالتها بالتربية والتمرين

وفي عصر النهضة أخذت دراسة الفروق السيكلوجية بين الأفراد اتجاهاً جدياً في المدارس الإيطالية ، وعنى للعلمون بها في توجيه تلاميذهم إلى نوع العمل أو الدراسات التي تصلح لهم ويعتبر فيتورينو دافلتري Vittorino da Feltre الذي عاش

في القرن الخامس عشر أول مدرس يداوحي بحق . كان ناظراً لمدرسته ومدرساً بها . وقد اهتم بمعرفة الفروق السيكلوجية بين تلاميذه واكتناه أسبابها ، وكيفية استغلالها في تكوين شخصيتهم . درس ولاحظ ميول تلاميذه الطبيعية المختلفة ، ومظاهر هذه الميول ، وقد رآهم الفطرية . وكان يضع لكل تلميذ منهجاً دراسياً خاصاً ، ويتخذ أيضاً طريقة للتدريس خاصة تتفق وقواه العقلية وذوقه . وهو يقول في هذا الصدد « ليس كل فرد صالحاً لأن يكون قانونياً أو طبيباً أو فيلسوفاً محترماً باقى الذكري بين الجمهور ، وليس كل فرد موهوباً بنعمة الذكاء الطبيعى » .

ونحن نجد مما سقنا عن فيتورينو أنه لم يكن بمعرفة الناحية النظرية من الفروق السيكلوجية بين الأفراد بل طبق هذه المعرفة في مدرسته ، بل لقد بالغ وأسرف في تطبيق نظرية الفروق السيكلوجية ونتائجها . فكان لا يتردد في أن يطرد من مدرسته أى تلميذ يرى أنه سيء الخلق . كما كان في كثير من الأحيان يفصل البلاداء ، أو من تخلف ذكاؤهم بمد سبق

وفي القرن الثامن عشر سادت أوروبا حركتان عقليتان في فلسفة التربية : الحركة العقلية التي تعز من شأن العقل وحده

(١) هو Marcus Fabius Quintilian ولد سنة ٣٥ ومات سنة ٩٥ م

شيئاً لا يقدر على عمله ، ولأنه لا يمكن أن يعدو حدود قدرته الطبيعية ، وهو يعرف تماماً ما هي .

ومعنى هذا أن روسو يترك للطفل كامل حريته حتى تنمو فيه الصفات المكونة لفرديته ، والتي تميزه عن غيره . فالفرق السيكولوجية إذاً نتيجة للنمو الحر للخواص الطبيعية الموروثة عند الأفراد .

ولكن رجال التربية الحديثة لا يشاركون روسو في هذا النوع من التربية المطلقة ، لأنهم لا يتفون بتعليم الطبيعة وقيادتها وحدها ، ولأنهم يخشون إن تركت الفرائز الفردية واليول الطبيعية حرة ، أن تسلك الطريق الموعج كما تسلك الصراط المستقيم . وهم يملكون ذلك المذهب البيداجوجي الذي اعتنقه روسو ونادى به بأنه رد فعل للروح الاجتماعية والثريرية التي كانت سائدة في عصره والتي قيدت النمو السيكولوجي الطبيعي للأطفال .

وكل ما يهمننا من مذهب روسو في هذا البحث هو أن نَجْل أنه فطن كثيره من الفلاسفة والمربين الذين ذكرناهم في هذا المقال وسابقه ، فطن إلى الفروق السيكولوجية عند الأطفال وإلى ضرورة تنمية للفردية وتربيتها عند الأطفال

هذا وقد أصبحت الفروق السيكولوجية بين الأفراد من الحقائق المسلم بها بين المربين وعلماء النفس المعاصرين ، وهم يوصون بأن تكون مناهج الدراسة وطرقها مختلفة باختلاف الأفراد ، ولكن إقرار الحقائق شيء والقيام بتنفيذ مستدعياتها شيء آخر . ولا زالت هناك صعوبات مادية وعملية في سبيل تحقيق مستدعيات الفروق السيكولوجية بين الأطفال . فصول الشواذ والمتخلفين وطرق التربية الفردية من الأشياء التي يشعر المربون بضرورتها وإن لم يستطيعوا تحقيقها بمدى في كل معهد دراسي (بحث الرضا . السودان)

شعب العزيز هيب الميم

وتدعو إلى الثقة بما يوحى به ، والحركة الطبيعية وهي التي تجعل لليول والمواطف المحل الأول في شؤون التربية والاجتماع ، والتي تدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه ويلام ميوله ورغباته . وتدعو هذه الحركة إلى إعطاء الطفل أكبر نصيب مستطاع من الحرية لتنمية غرائزه الصالحة وقواه المنتجة النافعة . وزعيم هذه الحركة هو جان جاك روسو^(١) . وقد كانت رسالته في التربية (إميل) ثورة على نظريات التربية القديمة التي كانت تحول بين الطفل وبين نمو غرائزه ، وتحدد من نشاطه العقلي وتقيد به آراء دينية واجتماعية تقليدية

جاء روسو منادياً بقوة الفردية Individualité ، وبتشجيع الفرائز على إظهار آثارها ، وإزالة العوائق التي تقطع عليها طريق الحرية الكاملة . وهاك اقتباساً من كتابه (إميل) بحث فيه على تنمية المواهب الفردية وتقويتها :

« لكل طفل استعداد عقلي خاص . ووفقاً لهذا الاستعداد يجب أن يوجه الطفل . وإذا أردنا نجاحاً في تربية الطفل وجب علينا أن نسير مع ميوله الطبيعية . كن حازماً وراقب طبيعة طفلك طويلاً ، ولاحظه بحرص وحيطة من قبل أن توحى إليه بكامة أو إرشاد . دع أولاً بذور طبيعته تترعرع ، واحذر أن تتدخل في نموه إلا قليلاً حتى ترى عم تفتح براعمها » وإذا فروسو ورأي المذهب ، لأنه يرى أن الفروق السيكولوجية — وهي التي تكون الفردية — طبيعية وموروثة ، وأن مهمة المربي هي أن يرى ما في الفرد — أي الطفل — من قوى ، ويراقبها ، وهو يبحث المربين والكبار على « أن يحترموا الأطفال ، وألا يتمجبلوا في الحكم على أفعالهم بالخير أو الشر . وإذا كان من بين الأفراد بعض الشواذ ، فالأولى أن يتركهم مدة من الزمن حتى تظهر نزاجي شذوذهم ، ثم يمالجهم بما يصلح لها . دع الطبيعة — معنى طبيعة الطفل — تعمل وتبدأ ، وأترك لها الزمن الكافي قبل أن تستعيز عنها غيرها ، خشية أن تمطل وظيفتها النافعة »

وفي أثناء المراحل الأولى من نمو الطفل ميعرف للطفل نفسه بنفسه . ويرى روسو أنه « لا ضير أن يترك الطفل وشأنه يفعل ما يشاء ، لأنه قد عرف قوة نفسه ، ومن المستحيل أن يعمل

(١) Jean Jacques Rousseau ولد سنة ١٧١٢ ومات سنة ١٧٧٨م

